ابن المعتز وشعره

أيها السادة:

ندع اليوم حديث الشعراء الشعبيين–إن صح هذا التعبير– لنتحدث عن شعراء القصور. أو إن شئتم فسندع اليوم شعراء السوقة لنتحدث عن شعراء الملوك. فالشاعر الذي سأحدثكم عنه اليوم ليس أقل من أنه كان أميرًا من أمراء القصر العباسي، بل كان في {أي كثير من الناس خليفة عباسيًا، وإن كنت أنا لا أرى هذا الرأي لأن بيعة ابن المعتز لم تتم، ولم تكن شاملة، وإنما كانت أشبه بالصورة منها بشيء آخر.

نسب ابن المعتز

ومهما يكن من شيء فشاعرنا عبد الله بن المعتز هو من أمراء هذا القصر العباسي العظيم، وهو سلالة مباشرة لجماعة من كبار الخلفاء الإسلاميين؛ فأبوه المعتز كان خليفة، وجده المتوكل ثم المعتصم ثم الرشيد. وتنتهي هذه السلسلة إلى العباس بن عبد المطلب.

بيئة ابن المعتز وأثرها فيه

وليس الذي يعيني هو مكانة ابن المعتز في النسب، وإنما الذي يعنيني هو هذه البيئة الخاصة التي نشأ فيها ابن المعتز والتي كان لها في تكوينه الفني أثر بعيد جدًا، هذه البيئة خليقة أن تدرس بعض الشيء، وأظن أننا إذا درسناها درسًا واسعًا مفصلا، فسننتهي إلى شيء قل أن نظفر به، وهو أننا نحب الشاعر ونعطف عليه، ونقرأ شعره مع شيء من المودة والصداقة قل أن يظفر بهما شاعر من الشعراء الذين ندرسهم عند ما يبعد العهد بيننا وبينهم.

كان ابن المعتز من سلالة الخلفاء، ولد في ظل جده المتوكل، ولكن حياته كانت مزاجًا غريبًا من السعادة والشقاء منذ أولها إلى أن انتهت. كانت مزاجًا من هذه السعادة التي يظفر بها أبناء الملوك في حياتهم المترفة الناعمة التي يجنبون فيها ألوان الشقاء، ولا يتعرضون فيها لهذه الخطوب وهذه الظروف السيئة المؤلمة التي تصد الإنسان عن الفن وعن الإنتاج الفني؛ لا لأنها شاقة متعبة فحسب، بل لأنها على مشقتها وعلى أنها متعبة ثقيلة لا تستحق من الرجل أن يقف عندها ويفكر فيها. وربما كان ألم الشاعر من فقره وضيق ذات يده ناشئًا لا عن أنه محروم فحسب، بل عن أن هذا الحرمان يشغله فيصرفه عن جمال الفن، ويصده عن الإنتاج.

فابن المعتز كانت بيئته تعصمه من شر هذه المصاعب وتقيه شر هذه الآلام السخيفة، ولكنها لم تكن سهلة مطردة ناعمة لا يلقى فيها الإنسان مشقة ولا صعوبة، وإنما بدئت بالعنف، وختمت بالعنف.

ولد ابن المعتز قبل أن يقتل جده المتوكل بأربعين يومًا، فهو إذن لم يكد يتقدم في الحياة حتى سفك دم جده، وقد كان قتل المتوكل ابتداء شر عظيم.

وقد لقي القصر عناء شديدًا من هذه النكبة، فتفرق أهله، ونكب أبناء المتوكل، وبعد مشقة عاد إليهم الأمر. وكان الذي تولى هذا الأمر هو المعتز أبو عبد الله وكان عند تولي الخلافة شابًا حدثًا لا يتجاوز العشرين من عمره، ويقول بعضهم إنه كان في الثامنة عشرة من عمره. ويقول إنه كان من أجمل الخلفاء العباسيين وجهًا وأحسنهم شكلاً، وأرقهم خلقًا واصفاهم طبعًا؛ ومن أبحهم للهو وأشدهم رضًا عن الحياة وابتسامًا لها. وكانت أيامه حين تسكن عنه الفتن والخطوب سرورًا كلها ولهواً كلها، وكان له صديق من الترك في سنه تقريبًا حلو الشمائل كالمعتز وضيئًا كالمعتز حلو الخلق كالمعتز، يقال له يونس بن بغا. وكان الخليفة مرحًا، فتى من فتيان قريش قد سهلت له الحياة وأطعمته النعمة في اللذات. ويقال إنه كان شغوفًا بالصيد. حديث العباس بن المفضل قال: كنت مع المعتز في الصيد فانقطع عن الموكب، وأنا ويونس بن بغا معه، ونحن بقرب منظرة وصيف. وكان هناك دير وفيه ديراني يعرفني واعرفه، نظيف ظريف مليح الأدب واللفظ. فشكا المعتز العطش فقلت: يا أمير المؤمنين. في هذا الدير ديراني أعرفه خفيف الروح لا يخلو من ماء بارد، افترى أن نميل إليه؟ قال: نعم. فجئناه. فأخرج لنا ماء باردًا، وسألني عن المعتز ويونس فقلت: فتيان من أبناء الجند، فاقل: بل مفلتان من حور الجنة. فقلت له: هذا ليس في دينك. فقال: هو الآن في ديني، فضحك المعتز. فقال له الديراني: أتأكلون شيئًا؟ قلت: نعم. فأخرج شطيرات وخبزًا وإدامًا نظيفًا، فأكلنا أطيب أكل. وجاءنا بأظرف إنسان فاستظرفه المعتز، وقال لي: قل له فيما بينك وبينه، من تحب أن يكون معك من هذين لا يفارقك؟ فقلت له. فقال: كلاهما وتمرا. فضحك المعز حتى مال على حائط الدير فقلت للديراني:

لا بد من أن تختار. فقال الاختيار والله في هذا دمار، وما خلق الله عقلا يميز بين هذين. ولحقهما الموكب فارتاع الديراني. فقال له المعتز: بحياتي لا تنقطع عما كنا فيه، فإن لمن ثم مولى ولمن ها هنا صديق. فمزحنا ساحة، ثم أمر بخمسمائة ألف درهم. فقال: والله ما أقبلها إلا على شرط. قال: وما هو؟ يجيب أمير المؤمنين دعوتي مع من أراد. قال: ذلك لك فاتعدنا ليوم جئناه فيه. فلم يبق غاية، واقام للموكب كله ما أحتاج إليه، وجاءنا بأولاد النصاري يخدموننا. ووصله المعتز يومئذ صلة سنية، ولم يزل يعتاده ويقيم عنده.

هذه الحياة ألهمت المعتز نفسه ذوقًا فنيًا خالصًا، فكان شاعرًا وشاعرًا مجيدًا. ولو قد مد له فيعمره لكان كابنه شاعرًا بنابغة، ولكنه أعجل فم تطل أيامه. وان عني من الشعر بهذه الفنون التي تلائم القصر، وتلائم المجون والدعابة، أو التي تلائم حياته الخاصة، وان يطلب من المغنين والمغنيات أن يغنوه فيما صنع من الشعر، وكان إذا قال بيتًا وطلب من المغنين غناءه طرب وطرب الندماء، وأنفقوا يومهم أو يومهم وليلتهم يسمعون ويشربون. ولكن هذه الحياة لم تطل، وهذا النعيم لم يدم، فقد كانت حياة القصر العباسي شديدة التعقيد، وكأنها ورثت من القصر الفارسي القديم كل ما كان فيه من اضطراب وعبث وكيد حد له.

كان القصر موزعًا بين الأتراك وغير الأتراك من رؤساء الجيش وكان الخليفة مضطرًا إلى أن يصانع أولئك وهؤلاء، وهو في أثناء هذا كله عرضة لكيد الكائدين ومكر الماكرين. ولم تمض على المعتز أعوام ثلاثة أو أربة حتى ساءت أحواله، وتنكرت له جنود، وكاد له رؤساء هذا الجند. ومن الحق أن نعترف أنه هو أيضًا كان يكيد لرؤساء هذا الجند خوفًا منهم. ومن الحق أيضًا أن نلاحظ أن أخلاق الأمراء والخلفاء انتهت من الفساد إلى حد لم نعرفه من قبل؛ فقد كان الخلفاء يمكرون بآبائهم وإخوتهم وحياتهم كلها مر في مكر. فالمعز قد غدر بالخليفة السابق المستعين،انزله عن الخلافة، وأخذ منه عهدًا خلع فيه نفسه وأمنه على نفسه وأهله وماله، وقيل منه أن يقيم في واسط آمنًا مطمئنًا، ولم يلبث أن أرسل إليه من قتله شر قتلة. فقد دار الدهر على المعتز بمثل ما دار به على المستعين، وعلى المتوكل من قبل، ثم على باقي الخلفاء العباسيين حتى انتهاء دولتهم.

أقبل الجند ذات يوم يطلبون إلى المعتز أرزاقهم، ولم تكن في خزائن القصر أموال، فاعتذر هو، وألحوا في الطلب، وما زالوا يحلون وهو يعتذر، وأخذوا يفاوضونه حتى انتهوا إلى خمسين ألفًا، فطلب إلى أمه أن تعينه. وعجزت أمه عن هذه الإعانة، فدخولا عليه، وكان معتلا بعض الشيء، فجروه حتى أخرجوه ووقفوه تحت الشمس في صحن الدار، فأخذ يتألم من الشمس، وقال من رآه: إنه كان يرفع رجله ثم يضعها تأذيًا من الحر.

وجاءوا بابن عمه المهتدي بن الواثق، جاءوا به على أن يكون خليفة، فأبي أن يجلس على السرير حتى يرى الخليفة. فجئ له بالمعتز من سجنه. فما رآه عانقه وأخذ يعتذر إليه ويتحرج مما يدعى إليه، وأخذ المعتز، يبرأ من الخلافة، وما زال المهتدي يلح عليه والمعتز يخلع نفسه، حتى قال له: فأنا إذن في حل من بيعتك. قال: نعم أنت في حل من بيعتي. فناك أعرض المهتدي بوجهه عن المعتز. وأخذه الجند فردوه إلى سجنه ولبث فيه حتى قتل.

عندما قتل المعتز سنة ٢٥٥ لم يكن عبد الله بن المعتز، قد جاوز الثامنة أو التاسعة، كان في هذه السن الصغيرة التي لا يستطيع الطفل معها أن يفكر إلا بقدر، ولكنه مع ذلك قد نشأ في هذه البيئة المملوءة بالهموم. ومن المؤكد أن حياته قد تأثرت بهذا كله، وأن طبيعته لم تخل من حزن ومن حزن ربما دفع إلى بؤس ويأس مصدرهما ما يشاهده حوله من الدماء المسفوكة، والتي كانت تسفك باستمرار طول هذا العصر. ومن الغريب أننا لا ناد نعرف عن نشأة ابن المعتز شيئًا كثيرًا، ويظهر أن السبب في هذا أن كثيرًا من الكتب التي وصت عن ابن المعتز وعصره لم تصل إلينا، إما لأنها ضاعت أو لأنها لا تزال مجهولة مفرقة في دور الكتب، وكنا ننتظر أن نجد شيئًا مفصلا عن حياته أو عن محنته في تاريخ الطبري، ولكن الطبري كتب هذا القسم في عهد المقتدر، فكان متحفظًا أشد التحفظ. ويظهر أن كثيرًا من أخبار ابن المعتز كانت مدونة في القرن الرابع، وأن الناس كانوا يختلفون فيه اختلافًا شديدًا، فمنهم من أحبه ومنهم من كان يكرهه ويسرف في الطعن عليه. وأبو الفرج عند ما يتحدث عن ابن المعتز يدافع عنه دفاعًا حسنًا، دفاع مقتنع بفضله وجلالة قدره، ويهاجم أولئك الذين هم أحق بالنقد، والذين يضعون من شعره وليس لهم شعر يشبه. إلى آخر ما يقول أبو الفرج دفاعًا عن ابن المعتز، وطعنًا على ناقديه.

نشأ ابن المعتز نشأة لا تخلو من نعمة، نشأ في قصور الخلفاء، وكلن حياته لم تخل من حرمان. كان منعمًا بالقياس إلى الذين كانوا يعيشون في ظلم وذلك من أبناء الأمراء والخلفاء.

عاش هذه العيشة التي كانت فيها نعمة، ولكنها لا تخلوا من ذل كثير. لم يكن في أول أمره غنيًا ولا ميسورًا، وإنما كانت حاله يسيرة بسيطة والظاهر أن تربيته كانت إلى جدته أم المعتز، وهي أم رومية، تسمى "قبيحة". ومع هذا فقد كان لابن المعتز مؤدبون من خيرة العلماء الذي عاشوا في بغداد. ومن أشهر هؤلاء المؤدبين أحمد بن سعيد الدمشقي الذي يثني عليه المؤرخون كثيرًا، وحدّث في بغداد وروى عنه كثير من المؤرخين.

شعره إلى مؤدبه أحمد بن سعيد

ويحدثنا أحمد بن سعيد، أنه كان يؤدب ابن المعتز، وكانت سنه في ذلك الوقت ثلاث عشرة سنة، فبلغه أن البلاذري المؤرخ قد سعى عند جدته حتى أذنت له أن يلقى الأمير ساعات في النهار، أي أن يكون بين الذين يؤدبون الأمير. فغضب أحمد بن سعيد وجلس في بيته مخزونًا، لأنهم أشركوا معه رجلاً آخر في تأديب هذا الأمير، هو البلاذري. فكتب إليه ابن المعتز ابياتًا رواها ياقوت، وهي أول شعر نعرفه للشاعر وهو في الثالثة عشرة من عمره:

اصبت يابن سعيد حُزت مكرمةً ... عنها يُقصّر من يحفى وينتَعل

سرْبلتني حكمةً قد هذبت شيمي ... وأججت غَرب ذهني فهو مُشتعل

أكون إن شئت قُسًّا في خطابته ... أو حارثًا وهو يم الفخر مُرتجل

وإن أشأ فكزيد في فرائضه ... أو مثل نعمان ما ضاقت بيَ الحيل

أو الخليل عروضيًا أخا فطن ... أو الكسائي نحويًا له علل

تغلى بداهة ذهني في مركبها ... كمثل ما عرفت آبائي الأول

وفي فمي صارمٌ ما سلَّه أحدٌ ... من غمده فدرى ما العيش والجذل

عُقباك شكر طويل لا نفاد له ... تبقى معالمه ما أطت الإبل

هذا الشعر على خلوه من الجمال الفني، أو على خلوه من الشعر، كثير على فتى في الثالثة عشرة من عمره، ولكنه على كل حال يمثل غرور الصبي، وإعجاب الفتى بنفسه، ويمثل حب الفتى لأستاذه، وحرصه على أن يريه.

فما رأيكم في صبي في الثالثة عشرة من عمره، ويرى أنه قادر أن يكون خطيبًا كقس، وشاعرًا كالحارث بن حلزة، وبارعًا في الميراث كزيد بن ثابت، وبارعًا في الفقه وحيله كأبي حنيفة، وماهرًا في العروض كالخليل، وماهرًا في النحو كالكسائي، يبلغ من هذا كله في هذه السن ما يريد، ثم يختم هذا الشعر بقوله: "عقباك شكر طويل لا نفاد له" ويختم هذا البيت بهذا الشطر

الذي يدل على أن الشاعر كان يتكلف محاكاة القدماء، ويستعين بتعبيراتهم. فيقول في عجز هذا البيت: "تبقى معالمه ما أطَّت الإبل".

على كل حال نجد في هذه الأبيات مقدمة لميل ابن المعتز الذي سيظهر شيئًا فشيئًا، في أثناء حياته التي لم تكن طويلة، بل كانت أقصر مما كان ينبغي لشاعر نابغة كابن المعتز.

حياته

كانت حياة ابن المعتز منوعة مختلفة أشد الاختلاف، كما يظهر من هذه الأبيات، فهو قد عني بكل ما يعني به المثقفون في عصره: عني بالأدب خطابة وشعراً وكتابة، وعني بالفقه ميراثًا وأحكامًا، وباللغة والنحو والعلل النحوية، ثم عني بأكثر من هذا، بما يعني به المترفون والأمراء بنوع خاص، فقد كان مسرفًا في ذاته، محبًا للصيد، مسرفًا في هذا الحب، وكان صاحب لهو، منه الحسن ومنه الرديء. ولكنه على كل حال استطاع أن يضمن لنفسه راحة وأمنًا لبعده عن الحياة السياسية العملية، فلم يطمع في الخلافة ولم يسع إليها، فرضي عنه الخفاء وأعانوه ومكنوه من هذه الحياة الحلوة التي فرغ فيها للذته الفنية والعقلية والجسمية.

كان ابن المعتز شغوفًا باللهو كما قلت، وكان مفتونًا بجارية يقال لها نشر [١]، وغلام يقال له نشوان. وكانت حياته مفرقة بينهما، يلهو مع هذه ويعبث بذلك. وله أخبار من هذين الحبيبين مفرقة في الكتب. يتحدث جعفر بن قدامة أنه دخل مرة على ابن المعتز فوجده محزونًا شديد الكآبة لأن نشوان مغضب. وقد بذل له ابن المعتز ما استطاع، لإرضاء هذا الغلام، فلم يستطع. وهو ينشد جعفرًا هذه الأبيات:

بـــــأبي أنـــــتَ قـــــد تماديـــــتَ   فـــــــي الهجـــــــر والغضـــــــبْ
واصـــــطباري علـــــى صُـــــدو   دك يومًـــــا مـــــن العجـــــب
لـــــيس لـــــي إن فقـــــدتُ   وجهـــك فـــي العـــيش مـــن أرب
رَحـــــم الله مـــــن أعـــــان   علـــــى الصُّـــــلح واحتســـــب

(١) سماها صاحب الأغاني "نشر" وسماها الصولي أكثر من مرة "شرة".

قال جعفر فنهضت: ودخلت على نشوان، ومازلت أداوره وأترضاه حتى رضي، فخرجت به على ابن المعتز، وأخذنا نشرب نهارنا كله على الغناء بهذه الأبيات.

وكان ابن المعتز رقيقًا في فنه هذا، وفي حبه، وفي لهوه. زعموا أن أصحابه اجتمعوا إليه ذات يوم، وكانت تغنيهم جارية قبيحة الشكل جدًا، وكان صوتها عذبًا، وان ابن المعتز مفتونًا بصوتها، فكان يداعب هذه الجارية القبيحة ويسرف في مداعبتها، فلما قامت قال له بعض ندمائه: ما الذي تحب من هذه الجارية الشوهاء؟ فقال:

قلبي وثَّاب إلى ذا وذا ... ليس يرى شيئًا فيأباه

يهيم بالحُسن كما ينبغي ... ويرحم القُبح فيهواه

لم يكن لهو ابن المعتز موقوفًا على حياته في القصر. وإنا كانت ينتقل معه لهوه وذاته إلى الأماكن التي يستطيع مثله أن ينتقل إليها. وأظنكم تذكرون دير "عبدون" وهذه الأبيات:

سقى المطيرة ذات اتلظلّ والشجر ... وديرِ عبدون هطالٌ من المطَرِ

يا طالما نبهتني للصّبوح به ... في ظلمة الليل والعصفورُ لم يَطر

أصواتُ رُهبان دير في صلاتهم ... سود المدارع نعارين في السحرَ

مزنرين على الأوساط قد جعلوا ... على الرءوس أكاليلاً من الشعرِ

كم فيهمُ من مليح الوجه مكتحل ... بالسحر يطبق حفنيه على حَور

لاحظته بالهوى حتى استقاد له ... طوعًا و أسلفني الميعاد بالنظر

وجاءني في ظلام الليل مستترًا ... يستجل الخطو من خوف ومن حذَرِ

فقمتُ من أفرش خدى في الطريق له ... ذلا وأسحب أذيالي على الأثر

ولاح ضوء هلال كاد يفضحنا ... مثل القلامة قد قدّت من الظفر

وان ما كان مما لستُ أذكره ... فظن خيرًا ولا تسأل عن الخبر

فنـــه

هذه الأبيـات التـي سمعتموها الآن تعطيكم نكرة واضحة بعض الوضوح، عن فن ابن المعتز في الشعر، فهو مطبوع ليس متكلفًا ولا متعملا في شعره، وهو يثر السهل على الغريب، وهو حريص ما استطاع على جزالة اللفظ، وهو يعني بهذه المعاني المترفة، التي تلائم حياته وبيئته. وهو شغوف بفن خاص من فنون الشعر، يظهر أنه قد تفوق فيه على الشعراء، وهو فن الوصف والوصف المادي بنوع خاص، ووصف الأشياء المادية الجميلة التي تلائم هواه، وهو من أكثر الشعراء تشبيهًا، ومن أبرعهم في هذا التشبيه، وإن كان في شعره شيء من التكلف والبحث والغوص، فهو إنما ينفق هذا التكلف في إجادة التشبيه وإجادة الاستعارة. ولكنه ليس كأبي تمام وابن الرومي متعمقًا باحثًا عن المعاني العويصة، التي يكد الإنسان في فهمها ويجد مشقة في ذلك، إنما هو يبحث عن طرائف الأشياء؛ ووجود تشبيهه قريبة، يفهمها كل إنسان في سهولة ويسر، وفي غير مشقة ولا عناء.

وانظروا إلى هذه الأبيات التي تعطينا فكرة واضحة عن الفن الذي كان ابن المعتز يحبه، والذي يعتمد على النظر أكثر من اعتماده على أي شيء آخر:

حبـــــــــــــذا آذار شـــــــــــــهرًا	فيـــــــــه للنـــــــــور انتشـــــــــار
يـــــــنقص الليــــــل إذا جـــــــاء	ويمتـــــــــــــــــدّ النهـــــــــــــــار
وعلــــــــــى الأرض اخضـــــــرار	واصــــــــــــفرار واحمـــــــــــرار
ونقشـــــــــــه آس ونســــــــــرين	ووَرْد وبهـــــــــــــــــــــــــــــار

طرق ابن المعتز فنونًا مختلفة من الشعر، ولكن الفني الذي عني به عناية خاصة وأنفق فيه جهدًا حقيقيًا هو ما يتصل بالوصف من ذكر الخمر ووصفها، واللهو والمجون والدعابة، ومع ذلك فلابن المعتز مدْح مدَح به جماعة من الخلفاء، وله هجاء وله رثاء، وهو لم يقصر في مدحه ورثاءه على الخلفاء، بل مدح الطاهرين وآل وهب، وله رثاء في هؤلاء كذلك.

الشعر التعليمي بينه وبين عبد الحميد

ولكني لا أريد ولا أستطيع أن أتحدث إليكم عن هذه الفنون التي عني بها ابن المعتز. وإنما أقف وقفة قصيرة على نوع عني به عناية خاصة. ولم يكن يشبهه فيه إلا أبان بن عبد

العميد اللاحقي... هذا الفن هو الشعر التعليمي. (Poesie Didactique) والذي يذهب فيه الشعراءُ مذهب التعليم، والذي تحول على مضي الزمن حتى أورثنا هذا النظم التعليمي الذي نراه في ألفية ابن مالك وغيرها من المنظومات التي كانت تحفظ وتدرس في الأزهر إلى وقت قريب.

يظهر أن أبان هو أول من عني بهذا الفن، فقد نظم كليلة ودمنة ونظم في الفقه، ونظم ابنه حمدن في الحب، وبقي من هذا النظم شيء يختلف قلة وكثرة [1] أما ابن المعتز فقد سلك طريقة "أبان" ولكنه لم يعن بالفقه ولا بالحب ولا بهذه الأشياء التي عني بها أبو العتاهية أيضًا كالزهد، وإنما نظم في أشياء أخرى، وبقي لنا منها كتابان نجدهما في ديوانه: أحدهما في تاريخ الخليفة المعتضد- وبعض النقاد والأدباء يرون أن هذه المنظومة مظهر من فنون الشعر القصصي- وإنما قصد ابن المعتز أن ينظم حياة المعتضد، أو سيرة المعتضد في حياته العامة، والأعمال الكبرى التي قام بها هذا الخليفة العظيم. أما كتابه الثاني فهو إلى الدعابة أقرب، وهو في ذم الصبوح أما الكتاب الأول فهو كغيره من المتون، يبتدئ.

باسم الإله الملك الرحمن ذي العز والقدرة والسلطان

الحمد لله على آلائه أحمده والحمد من نعمائه

أبدع خلقًا لم يكن فكانا وأظهر الحجة والبيانا

ثم يصلى على النبي ويفتخر بما ورث بنو العباس عن النبي، وينتهي من بني العباس إلى الخليفة المعتضد فيذكر أعمال الخليفة. وإذا كانت هناك ملاحظات فأهمها أنه لم يرتب قصيدته ترتيبًا منطقيًا، بل اضطرب. وأغلب الظن أن ابن المعتز اضطر أن يضيف إليها في أواخر أيام العتضد، أو أن ينظم ث يضيف إليها بعد ذلك. وهو يذكر ما كان من جهاد المعتضد لأصحاب الفتن في فارس والشام ومصر والجزيرة والحجاز واليمن. ووصفه لهذه الفتن وبلاء الخليفة في إزالة هذه الفتن من أجمل الوصف وأبدعه.

انظروا إلى هذه الأبيات:

قام بأمر المُلك لما ضاعا وكان نهبًا في الورى مُشاعا

---

(١) تجدون ما بقي من هذا النظم في كتاب الأوراق للصولي.

مـــذلّلاً ليســـت لـــه مهابـــه
يخـــاف إن طنـــت بـــه ذُبابـــه

وكـــل يـــوم ملـــك مقتـــول
أو خلــــف مُـــــروَّع ذليـــــل

أو خـــالع للعقـــد كيمـــا يعنـــي
وذاك أدنـــى للـــرّدَى وأدنـــى

وكـــم أميـــر كـــان رأس جـــيش
قـــد نغضـــوا عليـــه كـــل عـــيش

ولـــك يـــوم شـــغب وعصْـــب
وأنفـــس مقتولـــة وحـــرب

وكـــم فتـــى قـــد راح نهبًـــا راكبًـــا
إمـــا جلـــيس ملـــك أو كاتبـــا

فوضـــوعوا فـــي رأســـه الســـياطا
وجعلـــوا يردونـــه شـــطاطا

وكـــم فتـــاة خرجـــت مـــن منـــزل
فغضـــبوها نفســـها فـــي المَحفْـــل

وفضـــحوها عنـــد مـــن يعرفهـــا
وصـــدقوا العشـــيق كـــي يَقرْفهـــا

وحصَـــل الـــزوج لضـــعف حيلتـــه
علـــى نواحـــه ونتْـــف لحيتـــه

وكـــل يـــوم عســـكرًا فعســـكرا
بـــالكَرخ والـــدور مواتًـــا أحمـــرا

ويطلبـــون كـــل يـــوم رزقـــا
يَرونـــه دينًـــا لهـــم وحقَّـــا

كـــذاك حتـــى أفقـــروا الخلافـــة
وعودوهـــا الرعـــب والمخافـــة

فتلـــك أطـــلال لهـــم قفـــارا
تـــرى الشـــياطين بهـــا نهـــارا

بالتـــل والجوَســـق والقطـــائع
كـــم ثـــمّ مـــن دار لهـــم بلاقـــع

كانـــت تـــزار زمنًـــا وتعمـــر ويتقـــــي أميرهـــــا المـــــؤمر

وتصـــهل الخيـــل علـــى أبوابهـــا ويكثـــر النـــاس علـــى حجابهـــا

ولم يخرج ابن المعتز عن مذهب الشعر الخالص إلا عن قاعدة واحدة هي التزام القافية كالذين كانوا من قبله، لأن طبيعة هذا النظم لا تحتمل قافية واحدة، ولكنه في ألفاظه مؤثر لأجمل الألفاظ، وفي تشبيهاته مؤثر لأبدع التشبيهات، ويستطيع أن يلائم بين الشعر والتاريخ، أو بين التاريخ والأشياء المألوفة. ولهذه القصيدة مزية أخرى ربما كنا نحن في هذا العصر الذي نعيش فيه أقدر على إكبارها وتقديرها والشعور بها من الذين كانوا يعيشون في عصره، فهو يصور الفساد الذي وصلت إليه أمور الدولة قبل المعتضد، ويصور الفساد من جميع نواحيه الفردية والاجتماعية، ويصور هذا تصويرًا مؤثرًا جدًا، فهو يصور لنا تاجرًا اتسعت ثروته فنفس عليه بعض الأمراء وطمع فيما في يديه، فيأتي ويزعم له أن عنده ودائع للسلطان ويطلب منه أن يدفعها إليه؛ لأنها وديعة قد أودعها الحاكم عنده. فيأتي التاجر ويقسم ما استودعه السلطان مالاً، وإنما هو ماله، ولكن الأمير يأبى إلا أن يكون مال هذا التاجر وديعة السلطان، فيأخذ التاجر فيحبسه ويعذبه ويوكل به من يلقون إليه ألوان العذاب ليلا ونهارًا، حتى يؤثر الموت على الحياة أو يؤثر الراحة على ما عنده من المال، فإذا نزل عما عنده من المال تركوه. انظروا إلى هذه الأبيات:

وتـــــاجر ذي جـــــوهر ومـــــال كـــان مـــن الله بحســـن حـــال [1]

قيـــل لـــه عنـــدك للســـلطان ودائـــــع غاليـــــة الأثمـــــان

فقـــال لا والله مـــا عنـــدي لـــه صـــــغيرة مـــــن ذا ولا جليلـــــه

وإنمـــا رَبحـــتُ فـــي التجـــارة ولـــم أكـــن فـــي المـــال ذا خســـارة

فـــدخنوه بـــدُخان التـــين وأوقـــدوه بثقـــال اللـــبن

---

(١) في الديوان: "بأحسن حال".

حتـــى إذا مـــل الحيـــاة وضـــجر وقـــال ليـــت المـــال جمعًـــا فـــي ســـقر

أعطـــاهمُ مـــا طلبـــوا فأطلقـــا يســـتعمل المشـــي ويمشـــي العنقـــا

ويصور بنوع خاص ما كان يثيره جامعوا الضرائب، وما كان يلقاه دافعو الضرائب من الجهد والمشقة في أداء ضرائب ربما لم يكن من الحق عليهم أن يؤدوها، وعندما كانوا يطالبون بأضعاف ما كانوا يؤدون. ويصور لنا الرجل الذي تطلب منه الضريبة وهم يشدونه إلى شجرة أو إلى جذع، ويعذبونه لطمًا ولكما، وهو يستغيث ويدعو الخليفة ويدعو العدل، ولا يجيبه إنسان، حتى إذا شق عليه الأمر طلب إلى الذين يعذبونه أن يلتمسوا له المرابين ليقترض منهم. ويأتون له بهؤلاء فيساومونه ويساومهم، وينتهى الأمر بأن يرهن إليهم عقاره ويقدموا إليه ثمنًا بخسًا أو قرضًا يسيرًا، فيأخذه ويدفعه إلى هؤلاء. وحينئذ وحينئذ فقط يرسلونه ويخلون بينه وبين الحياة. أنظرا إلى هذه الأبيات:

فكـــم وكـــم مـــن رجـــل نبيـــل ذي هيبـــــة ومركـــــز جليـــــل

رأيتـــــه يعتـــــل بـــــالأعوان إلـــى الحبـــوس وإلـــى الـــديوان

حتـى اقـيم فـي جحـيم الهـاجره ورأسـه كمثـــــل قـــــدر فـــــائره

وجعلـــوا فـــي يـــده حبـــالا مـــن قنـــب يقطـــع الأوصـــالا

وعلقـــوه فـــي عـــري الجـــدار كأنـــه بـــرّادة فـــي الـــدار

وصـــفقوا قفـــاه صَـــفق الطبـــل نصـــبًا بعـــين شـــامت وخـــلِ

وحمَّـــروا نقرتـــه بـــين النقـــر كأنهـــا قـــد خجلـــت ممـــن نظـــر

إذا اســـتغاث مـــن ســـعير الشـــمس أجبـــــه مســـــتخرج بـــــرَفس

وَبـــب ســـبحانٌ عليـــه الزيتـــا فصـــار بعـــد بـــزّه كمَيتًـــا

حتـــى إذا طـــال عليـــه الجهـــد ... ولـــم يكـــن ممـــا أرادوا بـــد [1]

قـــال ائـــذنوا لـــي أســـأل التجـــارا ... قرضًـــا وغـــلا بعـــتهم عقـــارا

وأجلـــوني خمســـةً أيامـــا ... وطوقـــوني مـــنكم إنعامـــا

فضـــيقوا وجعلوهـــا أربعـــة ... ولـــم يؤمـــل فـــي الكـــلام منفعـــه

وجـــاءه المعينـــون الفجـــرة ... وأقرضـــوه واحـــدًا بعشـــره

وكتبـــوا صـــكا ببيـــع البيعـــه ... وحلفـــوه بيمـــين البيعـــه

ثـــم تـــأدّى مـــا عليـــه وخـــرج ... ولـــم يكـــن يطمـــع فـــي قـــرب الفـــرَج

وجـــاءه الأعـــوان يســـألونه ... كـــأنهم كـــانوا يذللونـــه

وإن تلكـــأ أخـــذوا عمامتـــه ... وخمشـــوا أخدعـــه وهامتـــه

يصور لنا ابن المعتز هذا كله، ويصوره على أنه كان حياة الناس قبل المعتضد، فلما جاء المعتضد بطش بهؤلاء الظالمين، وما زال ببعضهم حتى قتلهم، وما زال ببعضهم حتى سجنهم، وما زال ببعضهم الآخر حتى كفهم عن الظلم، أكان الأمر كما قال ابن المعتز؟ لا أدرى.

وربما كان عصر المعتضد كغيره من العصور التي سبقته، ولكن مما لاشك فيه أن خلافة المعتضد كانت نوعًا من النهضة، بل نوعًا من إحياء الأمل بعد هذه الفترة القصيرة التي قضاها المسلمون عامة بين عهد المتوكل وعهد المعتضد. ثم إذا أراد ابن المعتز أن يعرض للموضوع الذي طرقه في الكتاب الآخر كان طريفًا حقًا، وكان منطقيًا في هذا الكتاب أكثر مما

---

(١) في الديوان: "مما أراد بد".

كان في الكتاب السابق. وهذه الأرجوزة ليست مسرفة في الطول، لكنها ليست قصيرة وترتيبها يسير. فابن المعتز يتخيل أن صاحبًا له أنرك عليه شرب الخمر في المساء وقال له: مالك لا تصطبح، ومالك لا تؤثر الصبوح على الغبوق، فهو يستطيع أن يظهرك على ما في البساتين من جمال، فيصور جمال الرياض والبساتين توصرًا هو آية في الإبداع الفني. لا أظن أن أحدًا قد أستطاع أن يأتي بمثله في تشبيهاته واختراع المعاني البديعة التي تثيرها هذه الرياض. انظروا إلى هذه الأبيات:

لي صاحبٌ لامني وزادا — في ترْكى الصبوح ثم عادا
قال ألا تشرب [1] بالنهار — وفي ضياء الفجر والأسحار
إذا وشى بالليل صُبح فافتضح — وذكر الطائر شجو فصدح
والنجم في حوض الغروب وارد — والفجر في إثر الظلام طارد
ونفض الليل على الورد الندى — وحركت أغصانه ريحُ الصبا
وقد بدّت فوق الهلال كُرته — كهامة الأسود شابت لحيته
فنونَّ الدار ببعض نوره — والليل قد أزيح من ستوره
وقدّت المجرة الظلاما — تحسبها في ليل ها إذا ما
تنفس الصبح ولما يشتعل — بين النجوم مثل فرق مكتهل
وقال شرب الليل قد آذانا — وطمس العقول والأذهانا

---

(١) في الديوان: "و قال لا تشرب"

***

أمـــا تـــرى البســـتان كيـــف نـــوّرا ... ونشـــــر المنثـــــور بـــــردًا أصـــــفرًا

وضـــحك الـــورد علـــى الشـــقائق ... واعتنـــق القطـــر اعتنـــاق الوامـــق

فـــي روضـــة كحلـــة العـــروس ... وحـــــــزم كهامـــــــة الطـــــــاووس

وياســـمن فـــي ذرى الأغصـــان ... منتظمًـــــا كقطـــــع العقيـــــان

فـــي روضـــة كحلـــة العـــروس ... وحـــــــزم كهامـــــــة الطـــــــاووس

والســـرو مثـــل قطـــع الزبرجـــد ... قـــد اســـتمد المـــاء مـــن تـــرب نـــدى

وفـــرش الخشـــخاش جيبًـــا وفتـــق ... كأنـــه مصـــاحف بـــيض الـــورق

حتـــى إذا مـــا انتشـــرت أوراقـــه ... وكـــاد أن يرمـــي إلينـــا ســـاقه

صـــار كأقـــداح مـــن البلـــور ... كأنمـــا تجســـمت مـــن نـــور

وبعضـــه عريـــان مـــن أثوانـــه ... قـــد خجـــل البـــائس مـــن أصـــحابه

تبصـــره بعـــد انتشـــار الـــورد ... مثـــل الـــدبابيس بأيـــدي الجنـــد

والسوســـن الأبـــيض منشـــور الحلـــل ... كقطـــن قـــد مســـه بعـــض البلـــل

نـــور فـــي حاشـــيتي بســـتانه ... ودخـــل البســـتان فـــي ضـــمانه

وقـــد بـــدت فيـــه ثمـــار الكبـــر ... كأنهـــا حمـــائم مـــن عنبـــر

وحلـــق البهـــار فـــوق الآس ... جمجمـــة كهامـــة الشـــماس

حبـال نسـج مثـل شـيب النصـف ... وجـــوهر مـــن زهـــر مختلـــف

وجلنـــا مثـــل جمـــر الخـــد ... أو مثـــل أعـــراف ديـــوك الهنـــد

والأقحـــوان كالثنايـــا الغـــر ... قـــد صـــقلت توارهـــا بـــالقطر

فإذا فرغ هذا الصاحب من وصف الرياض وجمالها وذكر اللذة التي يحسها الشاربون في الصباح، وقال ابن المعتز إني لا أريد خلافك، فأنا مستعد لأن أصطبح معك، فإذا كان الليل فبت عندي، ثم إذا أصبحنا غدونا على لهونا. فيؤكد له صاحبه أنه سيصطبح معه ويعتذر بأنه لا يستطيع أن يمضي الليل عنده، فهو سيأتي في الصباح. ويمضي ابن المعتز يرقبه هو وأصحابه فيأخذون في شرابهم ولهوهم، فإذا تقدم النهار أتى صاحبنا خريان من هذا الإبطاء. أنظروا إلى هذه الأبيات:

ثم مضى يوعد بالبكور ... وهز رأس فَرح مسرور
فقمت منه خائفًا مرتاعا ... وقلت ناموا ويحكم سراعا
لتأخذ العين من الرقاد ... حظا إلى تغلية المنادى
فمسحت جنوبنا المضاجعا ... ولم أكن للنوم قبل طائعا
ثَمة فمنا والظلام مطرق ... والطير في أوكارها لا تنطق
وقد تبدى النجم في سواده ... كحلة الراهب في حداده
ونحن نصغي السمع نحو الباب ... فلم نجد حسا من الكذاب
حتى تبدت خمرة الصباح ... وأوج الندمان صوت الراح
وقامت الشمس على الرءوس ... وملك السكر على النفوس
جاء بوجه بارد التبسم ... مفتضح لما جنى مذمم
يعثر وسط الدار من حيائه ... وينتف الأهداف من ردائه
فعطعط القوم به حتى بدر ... وافتتح القول بعيّ وحصر
وقال يا قوم اسمعوا كلامي ... لا تسرعوا ظلمًا إلى ملامي
فجاءنا بقصة كاذبة ... لم يفتح القلب لها أبوابه
كعذر العنين يوم السابع ... إلى عروس ذات حظ ضائع

قـــال اشـــربوا فقلـــت قـــد شـــربنا أتيتنـــــا ونحـــــن قـــــد ســـــكرنا

فلـــم يـــزل مـــن شـــأنه منفـــردا يرفـــع بالكـــأس إلـــى فيـــه يـــدا

والقـــوم مـــن مســـتيقظ نشـــوان أو غـــارق فـــي نومـــه وســـنان

كأنـــه آخـــر خيـــل الحلبـــه لـــه مـــن الســـواس ألـــف ضـــربه

مجتهـــدًا كأنـــه قـــد أفلحـــا يطلـــع فـــي آثارهـــا مفتحـــا

وينتهز ابن المعتز هذه الفرصة فيقول:

أما أنا فلا أحب الصبوح. وهنا يذكر لنا الأسباب التي من أجلها يكره الاصطباح، فيقول: إذا كان الشتاء فشرب الخمر مع الفجر يعرض للبرد، وهم محتاجون إلى أن يستدفئوا، ولكن الشرر يتطاير من النار فيحرق ثياب الشاربين، وربما أصاب جلودهم وعيونهم، وربما جاء طارق من أصحاب الفقه والاحتشام فنكره أن يرانا نشرب، فنرفع الكؤوس ونقلع عن اللذة ونجالسه، ولعله يطيل، وإذا صرف، فلعل شيئًا مكروهًا أن يصيبهم كأن يأتيهم كتاب فيه ما يكرهون. أما في الليل فهم بمأمن من هذا، فإذا كان الصيف فما يصطبحون حتى سل الصباح سيوف الحر، فإذا أبدانهم تلهبها هذه النار يبعثها القيظ، وإذا هم يشربون حميمًا، هذا الحر الذي يأتيهم من الخارج إلى الذي يصيبهم من الداخل، وقد يجرعون، فإن أكلوا فهم في حاجة إلى النوم، وإن لم يأكلوا أخذهم الصداع، ودارت الخمر برءوسهم، فعربدوا وأساء بعضهم إلى بعض. انظروا إلى هذه الأبيات:

فاســـمع فـــإني للصـــبوح عائـــب عنـــدىَ مـــن أخبـــاره العجائـــب

إذا أردت الشـــرق عنـــد افجـــر والـــنجم فـــي لجـــة ليـــل يســـرى

وان بـــــرد بالنســـــيم يرتعـــــد وريقـــــه علـــــى الثنايـــــا قـــــد جمـــــد

وللغـــــلام ضـــــجرة وهمهمـــــه وشـــــتمة فـــــي صـــــدره مجمجمـــــه

يمشـــي بـــلا رجـــل مـــن النعـــاس ويـــدفق الطـــاس علـــى الجـــلاس

ويلعـــــن المـــــولى إذا دعـــــاه ووجـــــه إن جـــــاء فـــــي قفـــــاه

وإن أحـــسّ مـــن نـــديم صـــواتا ... قـــال مجيبًـــا طعنـــة وموتـــا

وإن يكـــون للقـــوم ســـابق يعشـــق ... فجفنـــــه بجفنـــــه مـــــدبق

وراســـه كمثـــل فـــرق قـــد مطـــر ... وصـــدغه كالصـــولجانت المنكســـر

أعجـــل عـــن مســـواكه وزينتـــه ... وهيئـــة تنظـــر حســـن صـــورته

فـــاءهم بقســـوة اللحـــاف ... محمولـــة فـــي الثـــوب والأعطـــاف

كأنمـــا عـــض علـــى دمـــاغ ... مـــتهم الأنفـــاس والأرفـــاغ

فـــإن طـــردت البـــرد بالســـتور [1] ... والـــنجم فـــي لجـــة ليـــل يســـرى

فـــأي فضـــل للصـــبوح يعـــرف ... علـــى الغبـــوق والظـــرم مســـدف

يحـــس مـــن رياحـــه الشـــمائل ... صـــوارمًا ترســـب فـــي المفاصـــل

وقـــد نســـيت شـــرر الكـــانون ... كأنـــــه نثـــــار ياســـــمين

يرمـــى بـــه الجمـــر إلـــى الأحـــداق ... فـــإن ونـــى قـــرطس فـــي الآمـــاق

وتـــرك الينـــاط بعـــد الحمـــد ... ذا نقـــط ســـود كجلـــد الفهـــد

وقطـــع المجلـــس فـــي اكتئـــاب ... وذكـــر حـــرق النـــار للثيـــاب

ولـــم يـــزل للقـــوم شـــغلاً شـــاغلاً ... وأصـــبحت جبـــابهم منـــاخلا

حتـــى إذا ارتفعـــت شـــمس الضـــحى ... قيـــل فـــلان وفـــلان قـــد أتـــى

وربمـــا كـــان ثقـــيلا يحتشـــم ... فطـــوّل الكـــلام حينًـــا وجشـــم

ورفـــع الريحـــان والنبيـــذ ... وزال عنـــا عيشـــنا اللذيـــذ

---

(١) في الديوان: "بالسهور".

ولســـت فـــي طـــور النهـــار آمنـــا ... مـــن حـــادث لـــم يكـــن قبـــل كائنـــا

أو خبـــــر يكـــــره أو كتـــــاب ... يقعـــط طيـــب اللهـــو والشـــراب

فاســـمع إلـــى مثالـــب الصـــبوح ... فـــي الصـــيف قبـــل الطـــائر الصـــدوح

حـين حـلا النـوم وطـاب المضـجع ... وانحســـر الليـــل ولـــذ المهجـــع

وانهـــزم البـــق وكـــنّ وقعـــا ... علـــى الـــدماء واردات شـــرعا

مـــن بـــدما قـــد أكلـــوا الأجســـادا ... وطيـــروا عـــن الـــورى الرقـــادا

فقـــرب الـــزاد إلـــى نيـــام ... ألســـنتهم ثقيلـــة الكـــلام

مـــن بعـــد أن دب عليـــه النمـــل ... وحيـــة تقـــذف ســـما صـــل

وعقـــرب ممـــددة قتالـــه ... وجعـــل وفـــارة بوالـــه

وللمغنـــى عـــارض فـــي حلقـــه ... ونفســـه قـــد قـــدحت فـــي حذقـــه

وإن أردت الشـــرب عنـــد الفجـــر ... والصـــبح قـــد ســـل ســـيوف الحـــر

فســـاعة ثـــم تجيـــك الدامغـــة ... بنارهـــا فـــلا تســـوغ ســـائغه

ويســـخن الشـــراب والمـــزاج ... ويكثـــر الخـــلاف والضـــجاج

مـــن معشـــر قـــد جرعـــوا حميمًـــا ... وطعمـــوا مـــن زادهـــم ســـمومًا

وغيمـــت أنفاســـهم أقـــداحهم ... وعـــذبت أقـــداحهم أرواحهـــم

وأولعـــوا بالحـــك والتفـــرك ... وعصـــب الآبـــاط مثـــل المرتـــك

وصـــار ريحـــانهم كالقـــتّ ... فكلهـــم لكلهـــم ذو مقـــت

وبعضـــهم يشـــمي بـــلا رجلـــين ... ويأخـــذ الكـــأس بـــلا يـــدين

وبعضـــهم محمـــرة عينـــاه ... مـــن الســـموم محـــرق خـــداه

وبعضهم عند ارتفاع الشمس ... يحس جوعًا مؤلمًا للنفس

فإن اسر ما به تهوسا ... ولم يطلق من ضعفه تنفسا

وطاف في أصداغه الصداع ... ولم يكن بمثله انتفاع

وكثرت حدته وضجره ... وصار كالحمى يطير شرره

وهم بالعربدة الوحيّه ... وصرف الكاسات والتحية

وظهرت مشقة في حلقه ... ومات كل صاحب من فرقه

وإن دعا الشقي بالطعام ... خيط جفنيه على المنام

ولكما جاءت صلاة واجبه ... فسار عليها فتولت هاربه

فكدر العيش بيوم أبلق ... أقطاره بلهوه لم تلتق

فمن أدام للشقاء هذا ... من فعله والتذه التذاذا

لم يف إلا دنس الأثواب ... مهوسًا مهوس الأصحاب

فازداد سهًا وضنى وسقما ... ولا تراه الدهر إلا فدما

ذا شارب وظفر طويل ... ينغص الزاد على الأكيل

ومقلة مبيضة المآقي ... وأذن كحقة الدباق

وجسد عليه جلد من وسخ ... كأنه أشرب نفطًا أو لطخ

وهكذا يمضي ابن المعتز فيصف لنا الشارب وقد بلغ بهد الجهد أقصاه:

تخال تحت غبطه إذا عرق ... لحية قاض قد نجا من الغرق

وريقه كمثل طوق من أدم ... وليس من ترك السؤال يحتشم

في صدره من واكف وقاطر ... كأثر الذرق على الكنادر

هـــذا كـــذا ومـــا تركـــت أكثـــر فجروبـــا مـــا قلتـــه وفكـــروا

كل هذه العيوب هي عيوب الشرب في الصباح. ومهما اقل فن أبالغ ولن أغلو حين أوصي بقراءة هاتين القصيدتين، لا لأن واحدة منهما تذم الصبوح وتحمد الغبوق، ولا لأن الأخرى تتناول حوادث تاريخية قد نجدها في سهولة في الكتب التاريخية، بل لأن في قراءة هذا النوع ما قد يبعث شعراءنا على محاكاة هذا الشعر. وأؤكد لكم أن هذه المحاكاة تعود بشيء كثير على الشعر في هذا العصر، فأجمل ما فيه أنه برئ كل البراءة من التكلف، لم يبحث عن لفظ غريب، ولم يتكلف معنى غريبًا، إنما هو يأخذ الأشياء التي حوله، فيعبر عنها بالألفاظ التي تدور على السنة الناس جميعًا.

كا هذا ولم أتحدث إليكم عن ناحيتين قيمتين من شعر ابن المعتز فقد أهملت حياته من حيث وهو رجل من العلماء وصاحب سياسة له مذهبه السياسي.

ابن المعتز العالم السياسي

كان ابن المعتز من كبار العلماء في القرن الثالث، والعلماء في الأدب والغناء بنوع خاص. وكتاب ابن المعتز في الغناء من أقوى الكتب، يعتمد عليه صاحب الأغاني ويقرظه. كان له مذهبه في التلحين وجرت بينه وبين العلماء مناظرات في موضوع يعني به المحدثون الآن وهو: هل للموسيقى والمغنى أن يعمد إلى لحن قديم فيغير منه بعض التغير ليلائم بين لحنه وحنجرته؟ بمعنى أن الموصلي يستطيع أو لا يستطيع أن يغير بعض التغير في ألحان معبد والغريض.

وكتب ابن المعتز في الشعر وسرقات الشعراء وكتابه في البديع مشهور، والمتقدمون يرون أن ابن المعتز هو الذي وضع علم البديع. أما مذهبه السياسي فهو عباسي خالص قوامه مخاصمة العلويين خصومة عنيفة يذهب فيها مذهب مروان بن أبي حفصة، ويحتج بالحجة التي اخترعها مروان في قوله:

أنـــى يكـــون ولـــيس ذاك بكـــائن لبنـــى البنـــات وراثـــة الأعمـــام [1]

(١) ظهر بعد إلقاء هذه المحاضرة كتاب الأوراق للصولي وفي القطعة التي عني فيها بشعر أبناء الخلفاء شعر لابن المعتز كثير يمدح فيها عليا وشيعته.

وشعره في هذا كثير، كان يقوله كلما ثار العلويون في الأطراف، وما أكثر ما كان يثور العلويون في الأطراف. وكم كنت أحب أن اقف وأطيل الوقوف عند فن الوصف أو عند الشعر السياسي عند ابن المعتز أو عند المذاهب العلمية المختلفة. أو عند حياة ابن المعتز نفسه من حيث هو أمير، ولكني أرجو أن أكون قد أثرت في نفوسكم شيئًا من الشوق والميل إلى قراءة، كما أثرت في نفوسكم شوقًا إلى قراءة الشعراء الذين تحدثت إليكم عنهم، والذين تجدون في دراستهم لذة قيمة تقدرونها يوم تتعمقون درس هؤلاء الشعراء.

أما بعد أيها السادة، فإني أستأذنكم في أن أكشر أجمل اشكر الجامعة الأمريكية وإياكم، لما تفضلت به الجامعة فأتاحت لي هذه الفرصة، وما تفضلتم أنتم به من عطف على ومواظبة على الاستماع لهذه المحاضرات. وإن كنت قد أثقلت فإني معتذر إليكم. أما أني قصرت كل التقصير فهذا شيء لا أشك فيه ولا أخاف يتهمني به إنسان، فأنا أول من يلاحظ هذا التقصير الشديد.